مُحدّد ؛ قد يأتي فجـأة ؛ فَمَنْ يعيش في معصية إلى عـمر التسعين ؛ هل يظن أنه سيفرّ من النار ؟

إنه وَاهمٌ يخدع نفسه ، ذلك أن إبهـام الله لميعاد الموت هو أعنفُ بيانٍ عنه . وما دام المصير إلى النار فلا مُتْعة فى تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ[1] ﴿٣١﴾ ﴾

و « قُلْ » من الله لرسـول الله ﷺ . وهل مـعـنى هذا أن العـبـاد الذين سـيسمـعون هذا الأمـر سيـقومـون إلى الصلاة ؟ لقـد سمـعه بعضهم ولم يَقُم إلى الصلاة .

إذن : مَنْ يُطع الأمر هو مَنْ حقَّق شرْط الإيمان ، وعلينا أن ننظر إلى مُكْتنفـات كلمـة « عبـادى » فـعبـاد الله هم الذين آمنوا ، وحـين يؤمنون فهم سـيُعبِّـرون عن هذا الإيمان بالطاعة . وهكذا نفـهم معنى الألفاظ لتستقيمَ معانيها فى أساليبها .

وكل خَلْق الله عـبـيد له ؛ ذلك أن هنـاك أموراً قـد أرادها الله فى طريقة خَلْقهم ، لا قدرةَ لهم على مـخالفتها ؛ فهو سبـحانه قد قهرهم فى أشياء ؛ وخيَّرهم فى أشياء .

(١) خلال : إمـا جمع خُـلَّة أو مصـدر خالّه . والمـعنى : إن يوم القيـامة لا ينجى من عـذابه شيء ، فلا يبـاع فيه شيء بمال يفـتدى الكافر نفسـه به ، ولا صداقة تفيـده ، فلا صديق يُغني عن صديق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

ولذلك أقول دائماً للمُتمرِّدين على الإيمان بالله : لقد ألِفْتم التمرّد على الله ؛ ولم يَأْبَ طَبْع واحد منكم على رفض التمرّد ، فإنْ كنتم صادقين مع أنفسكم عليكم أنْ تتمردوا على التنفس ؛ فهو أمر لا إرادى ، أو تمردوا - إن استطعتُم - على المرض وميعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم ألِفُوا التمرّد على ما يمكنهم الاختيار فيه . ونسُوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ؛ فإن اختار المؤمن أن يتبع منهجَ الله صار من « عباد الله » ، وإنْ لم يخضع للمنهج فيما له فيه اختيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تستقرىء كلمة « عباد» وكلمة « عبيد » فى القرآن ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا(١) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ(٢) قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العبيد وهى مُلْتصقة بمَنْ يتمردون على منهج الله ؛ ولن تجد وَصْفاً لهم بأنهم « عباد » إلا فى آية واحدة ؛ حين يخاطب الحَقُّ جَلَّ وعلا الذين أضلوا الناس ؛ فيقول لهم :

---

(١) الهوْن : الرفق واللين والتثبت . والهوْن : السكينة والوقار والسهولة . [لسان العرب - مادة : هون] .

(٢) جهل فلان على غيره : تعدَّى عليه وتسافه وقسا . والجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

ونلحظ أن زمن هذا الخطاب هو فى اليوم الآخر ؛ حيث لا يوجد لأحد مُرْتاد مع الله ؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعنَ فى أن كلمة « عباد » إنما تستخدم فى وَصْف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه فى الحياة الدنيا ؛ ذلك أنهم قد سَلَّموا زِمَام اختيارهم لله ، وأطاعوه فى أوامره ونواهيه .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم]

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين فى انتظار هذا الأمر لِيُنفِّذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفِّذ كل أمر يأتيه من الله .

وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفِّذونه على الفور ؛ وقد جاء قوله (يقيموا) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أنهم سيصدعون(١) لتنفيذ الأمر فوْر سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى جَمْهرة آيات القرآن(٢) تأتيان متتابعتين مع بعضهما ؛ لأن إقامةَ الصلاة تتطلب

---

(١) صدعت إلى الشيء : ملْتُ إليه . [لسان العرب ـ مادة : صدع] .

(٢) جاء هذا فى أكثر من ٢٧ آية من القرآن . [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن] .

حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً ؛ والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعنى أن تُخرج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة فى الوقت .

ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد منّا يحاول أن يجمع الصلوات إلى آخر النهار ، ويُؤدّيها جميعها قضاءً » . وهم لا يلتفتون إلى أن كُلّ فرض حين يُؤدّى فى ميعاده لن يأخذ الوقت الذى يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطى شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل ؛ وكيف يُقبل المصلى على العملَ بنفس راضية ؛ ذلك أنه بالصلاة قد وقف فى حضرة مَنْ خلقه ، ومَنْ رزقه ، ومَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مُطمئناً مُنتبهاً راضياً ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] .

والصلاة فى كل فرض ؛ لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطى بأكثر ممّا أخذت .

وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة فى آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هى جمَاع القيم كلها ؛ وإيتاء الزكاة جمَاع قيام الحركات العضلية كلها .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ؛ وكلاهما تُصلِح مكونات ماهية الإنسان ؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .

ولذلك قال ﷺ : « وجُعِلَتْ قُرة عينى فى الصلاة »(١) .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة وتتفرع منهما ؛ ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها ﷺ فى الأركان الخمس للدين ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحِجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً(٢) .

وعرفنا من قَبْل كيف أخذت الصلاة كُل هذه الأركان مجتمعة ؛ ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت ؛ وفيها صَوْم عن كل ما تلتزم به وأنت صائم ؛ وأنت تتوجه خلالها إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصْلِحة لها بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه فى هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق فى أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) ، والنسائى فى سننه (٦١/٧) والحاكم فى مستدركه (١٦٠/٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

سراً كى لا يقع الإنســان فريســةَ المُباهاة ؛ والإنفـاق علَناً كى يعطى غيره من القادرين أُسْوة حـسنة ، ولكى تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجـعل الصدقة التطوعـية سراً ، واجـعلها كمـا قال النبى ﷺ : « لا تعلم شمالك ما أعطتْ يمينك »[(١)] .

واجـعل الزكاة عـلانية حـتى يعلمَ الناس أنك تُؤدى مـا عليك من حقوق الله وتكون بالنسـبة لهم أُسْوة فعلية ، وعِظَة عـملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عظَة سلُوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدَّوْا فريضة الحج .

ونجد أن القـادر الذى يبنى مسـجداً ؛ يعطى القـادر غيـره أُسْوة ليـبنى مســجداً آخـر ، وما أنْ يأتىَ رمـضان حـتى يصومَ القـادرون عليه ؛ ويعطوا أُسْوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) ﴾ [إبراهيم]

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمـكن أن تؤجلها ، إلا الغايات التى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

لا توجد فيها أعواض ؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتُنفّذها على الفور ؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْع أو شراء ، ولن يستطيع أحد فيه أن يُزكّى أو يُصلّى ؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عمّا كان يجب أن تقوم به فى الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هى ما أذن له الرحمن بها[1] ، ولذلك يأتى الأمر هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سِراً وعلانية من قبل أن يأتىَ اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلاَل .

والبيع ـ كما نعلم ـ هو مُعَاوضة متقابلة ؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن ؛ وهناك مَنْ يأخذ السلعة . والخِلاَل هو المُخَالّة ؛ أى : الصديق الوفىّ الذى تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبيّن معنى كلمة « خليل » حين يقول :

لَمّا التقيْنَا قرّب الشَّوْقُ جَهْده　　خليلين ذَابَا لَوْعةً وعِتَابا

كأنّ خليلاً فى خِلاَل خَلِيله　　تَسرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وغَابَا

وهذا يوضح أن المُخالة تعنى أن يتخلل كُلٌّ منهما الآخر .

وفى الآخرة لن تستطيع أن تشترى جنة أو تفتدى نفسك من النار ؛ ولا مُخَالّة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسناته . والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه] ويقول أيضاً : ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .. (٢٣)﴾ [سبأ] . فالشفاعة ثابتة بنص القرآن بشرط إذن الله للشافع أن يشفع ، وللمشفوع فيه بعلم الله فيه ، أما الكافرون والمشركون والمنافقون فالشفاعة منفية عنهم .

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [الزخرف]

وبعض السطحيين يريدون أنْ يأخـذوا علي القرآن أنه أثبت الخُلَّة ونفاها ؛ فهو القائل :

﴿ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۝ ﴾ [إبراهيم]

وهو القائل :

﴿ وَلَا خُلَّةٌ .. ۝ ﴾ [البقرة]

ثم أثبت الخُلَّة للمتقين ؛ الذين لا يُزيِّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحـيـون لا يُحـسنون تدبُّر القـرآن ؛ ذلك أن الخُلَّة المَنْفية ـ أو الخِلاَل المنفـية ـ في الآيات هي الخِلال التي تحضُّ على المعاصي ؛ وهذه هي الخِلاَل السيئة .

ونعلم أن البيع في الحـياة الدنيا يكون مـقابلةَ سلعة بثـمن ؛ أما المُخـالَّة ففيهـا تكرُّم ممَّنْ يقدمهـا ؛ وهو أمرٌ ظاهريّ ؛ لأن في باطنه مُقايضة ؛ فـإذا قدَّم لك أحدٌ جميلاً فهذا يقـتضي أنْ تردّ له الجميل ؛ أما التكرُّم المجرَّد فهو الذي يكون بغير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيَّن لنا الحق سبحانه السـعداء وبيَّنَ الأشقياء ، وضرب المَثل بالكلمـة الطيبة ، وضرب المثـل بالكلمة الخبيثـة ، يأتي من بعد ذلك بمـا يهـيج في المـؤمن فـرحـةً في نفسـه ؛ لأنه آمن بالله الذي صنع كل تلك النعم ، ويذكـر نعماً لا يشتـرك فيهـا مع الله أحد أبداً ، فيقول :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ[1] لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ ﴾

والسماء والأرض ـ كما نعلم ـ هما ظَرْفَا الحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ فهذا لَفْتٌ لنا على الإجمال ؛ لأنه لم يَقُلْ لنا ما قاله فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عَمَد[2] ؛ وليس فيها فُطور ، ولم يذكر هنا أنه خلق فى الأرض رواسى كى لا تميد[3] بنا الأرض ، ولم يذكر كيف قَدَّر فى الأرض أقواتها[4] ، واكتفى هنا بلمحة عن خَلْق السماوات والأرض .

---

(١) الفُلْك : السفينة ، للمذكر والمؤنث والواحد والجمع . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) عَمَد : جمع عمود . وقال الفراء : فيه قولان :
- أحدهما : أنه خلقها مرفوعة بلا عمد ، ولا يحتاجون مع الرؤية إلى خبر .
- والقول الثانى : أنه خلقها بعمد لا ترون تلك العمد . [لسان العرب ـ مادة : عمد] .

(٣) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] . لئلا تميل وتضطرب ، فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

(٤) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته . وجمعه أقوات . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْق السماوات والأرض يأتى بشىء لم يدَّعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون ألزم فى الحجة للخَصْم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ؛ وجعلهم يرونَ أنهم كفروا نتيجة لَدَدٍ[1] غير خاضع لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حُكْماً لا يوجد له معارض ولا منازع ؛ فهذا يعنى أن الحكم قد سلِم له سبحانه . ولم يجترىء أحد من الكافرين على ما قاله الله ؛ وكأن الكافر منهم قد أدار الأمر فى رأسه ، وعلم أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه خَلْق السماوات والأرض ؛ ولا يجد مفراً من التسليم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا ؛ لأنها مناطُ الصعوبة فى التكليف ؛ فالتكليف يقف أمام الشهوات ؛ وقد تغضبون من التكليف ؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة .

ولم يأتِ الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناطُ العطاء الذى شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعنى المعبود الذى يُنزِل الأوامر والنواهى ؛ وتعنى أن هناك مشقات ؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة . وألده يلده : خصمه . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض ؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هي كُلُّ ما علاك فاظلَّك .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغَيْم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وقد عرفنا بالعلم التجريبي أن الطائرة - على سبيل المثال - تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ؛ بل ينزل ممَّا يعلونا من غَيْم وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء ؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتي من أعلى ؛ ولذلك نجد الحديد الذي تحتضنه الجبال وينضج في داخلها ؛ يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[4] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

---

(١) زجه يزجه : دفعه بسرعة . وزجا الشيء يزجوه : ساقه برفق . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

(٢) قوله : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣) ﴾ [النور] أي : متجمعاً فيه مطر كثير غزير . [القاموس القويم ٢٧٦/١] .

(٣) الودق : المطر كله شديده وهيّنه . [لسان العرب - مادة : ودق] .

(٤) قال ابن كثير في تفسيره : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] يعني : السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ، و : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أي : في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والأزميل والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة .. وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . [تفسير ابن كثير ٣١٥/٤] .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ؛ وكيف أنزل الماء من السماء :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والثمرات هى نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ؛ وقد لا تأكل البعض الآخر ؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ؛ ولكنا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والتسخير معناه قَهْر الشىء ليكون فى خدمة شىء آخر . وتسخير الفُلْك قد يثير فى الذهن سؤالاً : كيف يُسخِّر الله الفلك ، والإنسان هو الذى يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين نأتى بالأخشاب التى نصنع منها الألواح التى نصنع منها الفُلْك ؟ ثم مَن الذى جعل الماء سائلاً ؛ لتطفو فوقه السفينة ؟ ومَن الذى سيَّر الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صُنْع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتى مرة ويُرَاد بهـا الشىء الواحد ؛ وتأتى مرة ويُراد بها أشياء ؛ فهى تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤)﴾ [البقرة]

وكذلك قال فى قصة نوح عليه السلام :

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧)﴾ [هود]

وبعض العلماء يقولون : إذا عاد ضمير التأنيث عليه ؛ تكون جَمْعاً ؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكنِّى أقول : إن هذا القول غَيْر غالب ؛ فسبحانه قد قال عن سفينة نوح وهى مفرد :

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا .. (١٤)﴾ [القمر]

ولم يَقُل : « يجرى بأعيننا » ، وهكذا لا يكون التأنيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ..(٣٢)﴾ [إبراهيم]

ونفهم بطبيعة الحال أن النهر عَذْب الماء ؛ والبحر ماؤه مالح . وسبحانه قد سخَّر لنا كل شىء بأمره ، فهو الذى خلقَ النهر عَذْب الماء ، وجعل له عُمْقاً يسمح فى بعض الأحيان بمسير الفلك ؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقَ القاع لتمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسخَّر بأمره ، وهو القائل سبحانه :

﴿إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

أى : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياحُ ساكنة ؛ فتركد السفن فى البحار والأنهار .

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن الريح التى تُسيِّر الفلك والسفن ؛ قال الشكليون والسطحيون « لم نعد نُسيِّر السفن بالرياح بل نُسيِّرها بالطاقة » .

ونقول : فلنقرأ قوله الحق :

﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال]

و « ريحكم » تعنى : قوتكم وطاقتكم ؛ فالمراد بالريح القوة المطلقة ؛ سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - نزلت بعد أن أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين ؛ والأشقياء الكافرين ؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة الله هذه ، فلمَّا علموا بها آمنوا به سبحانه .

وكرمتهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التى لم تُضبَّب ، وتكريم للعقل الذى فكَّر فى الكون ، ونظر فيه نظرةَ اعتبار وتدبُّر ليستنتج من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .

وفى الآية تقريع للكافر الذى استقبل هذه النعم ، ولم يسمع من

أحد أنه خلقها له ؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر بربِّ هذه النعم .

وأول تلك النعم خَلْق السماوات والأرض ؛ ثم إذا نظرتَ لبقية النعم فستجدها قد جاءتْ بعد خَلْق السماوات والأرض ؛ وشيء من تلك النعم مُتَّصل بالسماء ؛ مثل السحاب ، وشيء متصل بالأرض مثل الثمرات التي تخرجها .

إذن : فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين النعمة الأولى وبين النعمة الثانية .

ثم قال بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

فما هي المناسبة التي جعلتْ هذا الأمر يأتي بعد هذين الأمرين ؟ لأن الفُلْك طريقها هو البحار ومسارها في الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض . ومدلول الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوي ثلاثة أمثال اليابسة ؛ ورُقْعة الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب في الأرض .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمراً هي رِزْق لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها للإنسان شيء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى ؛ وأوضح أنه سخَّر البحر لنأكل منه لحماً طرياً[1] ؛ وتلك مُقوِّمات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها ؛ وذلك من تَرف الحياة .

ونرى الفلك مواخر[2] فيه لنبتغى من فضله سبحانه .

وبذلك تكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلى ؛ ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل ؛ فربما لم يكُن الناس قادرين فى عصر نزول القرآن على أنْ يفهموا ويعرفوا كل ما فى البحار من خيرات ؛ ولا تزال الأبحاثُ العلمية تكشف لنا المزيدَ من خيرات البحار .

وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات التى فيه .

إذن : فقوله :

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

هو قَوْل إجمالى يُلخِّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقات أعماق البحار نتعجَّب من ذلك الخَلْق أكثر مما نتعجَّب من الخَلْق الذى على اليابسة ، ومن خَلْق ما فى السماء .

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ [فاطر] .

(٢) مَخرت السفينة مَخْراً ومُخوراً : شقت الماء بصدرها وسُمع لها صوت . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

وهكذا يكون قوله الحق :

﴿لِتَبْتَغُوا من فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

من آيات الإجمال التى تُفصِّلها آيات الكون ؛ فبعضٌ من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدَّق الناس ـ على عهد نزول القرآن ـ ذلك .

وعلى سبيل المثال حين تكلَّم سبحانه عن وسائل المواصلات ؛ قال :

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾

[النحل]

وقوله تعالى :

﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

أدخل كُلَّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات ؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك .

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار ؛ إنما يُوضِّح لنا ما يُكمِل الكلام عن الأرض :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢)﴾ [إبراهيم]

ولو فَطِن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار » ؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة الصحراء » ؛ ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم .

وإياك أن تقول : أنا الذى صنعتُ الشراع ؛ وأنا الذى صنعتُ المركب من الألواح ، ذلك أنك صنعتَ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله ؛ ومن المادة الموهوبة لك من الله ، فكلُّها أشياء جاءتْ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه :

﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم]

والنهر ماؤه عادة يكون عَذْباً ليروى الأشجار التى تُنتِج الثمار . والأشجار عادة تحتاج ماء عَذْباً .

وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحار والمحيطات مخزناً ضخماً للمياه ؛ يحتل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية ، وهى مساحة شاسعة تتيح فُرْصة لعمليات البَخْر ؛ التى تُحوِّل الماء بواسطة الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحاباً ؛ فيُسقط السحابُ الماءَ بعد أن تخلص أثناء البَخْر من الأملاح وصار ماء عَذْباً ؛ تروى منه الأشجار التى تحتاجه ، وتنتج لنا الثمار التى نحتاجها ، وكأن الأملاح التى توجد فى مياه البحار تكون لِحفْظها وصيانتها من العطب .

ونعلم أن معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون دورة الماء فى الكون ؛ مياه فى البحر تسطع عليها الشمس لتُبخِّرها ؛ لتصير سحاباً ؛ ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُغذى الأنهار ؛ ويصب الزائد مرة أخرى فى البحار .